

العراق

ومعالم الحضارة الإسلامية الزاهرة

أ.د. محمد عبد العظيم العدوي

الأستاذ بجامعة الأزهر

ورئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بكلية اللغة العربية بالمنصورة - سابقاً

العراق^(١) .. موقعه :

يقع العراق في جنوب غربي آسيا بين دائرتي العرض ٢٩ و ٣٧ ° شمالاً، وبين خطي طول ٣٩، ٤٨ ° شرقاً، وهو جمهورية عربية إسلامية.

مساحته :

وتبلغ مساحة العراق حوالي ٤٣٤٠٠٠ كم^٢، بالإضافة إلى نصف المنطقة المحايدة بين العراق والمملكة العربية السعودية الذي تبلغ مساحته ٣٥٢٢ كم^٢، ويطل العراق بساحله الجنوبي على الخليج العربي، وتجاوره الكويت والمملكة العربية السعودية من الجنوب، والأردن من الجهة الغربية وسوريا من الجهة الشمالية الغربية، وتركيا من الشمال وإيران من الشرق، ووحدة النقد في البلاد الدينار العراقي^(٢).

(١) سُمي العراق عراقاً لأنه سفلى عن نجد، ودنا من البحر أخذاً من عراق القرية وهو الجزء الذي في أسفلها (البغدادي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام دار الكتاب العربي - بيروت، ابن منظور: لسان العرب: مادة عرق وقيل سُمي العراق عراقاً لصب المياه إليه من دجلة والفرات وغيرها من الأنهار وأظنه مأخوذاً من عراقي اللؤلؤ في القرية (السعودي: مروج الذهب ج٢/٦٩ ط. المكتبة الإسلامية - بيروت: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) د. حسن عبد القادر صالح وآخرين، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

واللغة العربية هي اللغة الرسمية، وبعض السكان يتكلمون الكردية والأشورية والأرمنية.

والتوزيع الجغرافي على النحو التالي:

عرب ٧٥% - ٨٠%، أكراد ١٥ - ٢٠%، تركمان وأوريون وأوخر ٥%، وذلك وفق تقديرات سنة ٢٠٠٢م.

ويمثل المسلمون ٩٧%: شيعة ٦٠ - ٦٥%، سنة ٣٢ - ٣٧% وقد قسمت العراق إدارياً إلى ثماني عشرة محافظة هي:

دهوك، أربيل، نينوي، التاميم، السليمانية، صلاح الدين ديالي، بغداد، الأنبار، الواسط، بابل، كربلاء، القادسية، ميسان، النجف الأشرف، ذي قار، المثنى، البصرة^(٣).

السكان وال عمران :

يبلغ عدد السكان وفق تعداد ٢٠٠٢م ما يقرب من خمسة وعشرين مليوناً، ومعظم سكان العراق من العرب المسلمين إذ تبلغ نسبتهم كما ذكرنا ٩٧% ويتقارب أهل السنة في عددهم مع الشيعة بصفة عامة، ويتركز غالب السنين في النصف الشمالي حيث يشملون العرب هناك بدوهم وحضرهم، كما يشملون الأكراد والتركمان، كما يوجد السنين أيضاً في بغداد والبصرة، إلا أن غالبية الشيعة يتركزون في النصف الجنوبي من العراق وخاصة في جنوبي نهر دياله.

(٣) فتحي محمد إبراهيم: الحرب على العراق ص ٦، ٧ ط. مركز العروبة للدراسات والبحوث ٢٠٠٣م.

ويبلغ عدد المسيحيين في العراق نحو نصف مليون نسمة ٤% من مجموع السكان، وهم ينتمون لطوائف متباينة من المسيحيين الشرقيين مثل الروم الكاثوليك واللاتين والأرثوذكس والأرمن والسريان والكلدانيين، وتوجد جماعاتهم في معظم المدن الكبرى بالعراق إلا أن وجودهم الرئيسي يتركز في محافظة الموصل، وقد تناقص عدد اليهود في العراق نتيجة هجرة الكثير منهم إلى فلسطين المحتلة وكان عددهم بالعراق ١٠٠٠٠ في عام ١٣٦٥هـ أصبح حالياً ٢٥٠٠ نسمة وإلى جانب النصارى واليهود توجد مجموعات دينية صغيرة العدد مثل الصائبة الذين يبلغ عددهم ٢٠,٠٠٠ نسمة واليزيديين الذين يبلغ عددهم ٣٠,٠٠٠ نسمة.

واللغة العربية كما أشرنا من قبل هي لغة البلاد الرسمية التي يتحدث بها العرب وكثير من عناصر السكان الأخرى غير العربية وفي العراق أكثر من مليوني كردي من المسلمين السنيين الذين تجمعهم مع عرب العراق وحدة الإسلام، وتبلغ نسبة الأكراد ١٠% من مجموع السكان وهم يتركزون في شمالي شرق العراق وخاصة في منطقة جبل كردستان، ويمثلون نسبة عالية بين سكان مناطق السلمانية وأربيل وكركوك والموصل وقد جرى الاتفاق على منحهم استقلالاً ذاتياً ضمن نطاق العراق الموحد وإلى جانب هؤلاء يوجد من المسلمين التركمان في شمالي العراق ويبلغ عددهم ١٦٠,٠٠٠ نسمة واللور في شرقي العراق وعددهم ١٢٠,٠٠٠ بينما يتركز الآشوريون المسيحيون قرب الموصل وجنوبي بغداد ويبلغ عددهم ٧٠,٠٠٠، وتتكلم العناصر غير العربية لغاتها الخاصة إلى جانب اللغة العربية أحياناً ومنها الكردية التي يتحدث بها نحو ١٠% من سكان العراق، بينما يستعمل الفارسية بعض القبائل في شرق العراق ٣% من مجموع السكان ويستعمل التركية بعض سكان شمال العراق ٢% من السكان.

وتزداد كثافة السكان في العراق على طول المجاري المائية وخاصة في المدن مثل بغداد والبصرة والموصل ويتركز حوالي ستة ملايين نسمة في بغداد عاصمة العراق، بينما يعيش في كل من مدينتي البصرة والموصل قرابة المليونين، وقد اتجهت الحكومة العراقية - قبل الحرب الأمريكية البريطانية التي شنت على العراق في أواخر شهر مارس ٢٠٠٣م^(*) - في السنوات الأخيرة إلى الحد من هجرة السكان من الريف إلى المدن فقامت مشروعات للتنمية الريفية حتى ارتبط سكان الريف بقراهم، كما عمل الإصلاح الزراعي على تعمير مناطق كادت تخلو من السكان ومن المشروعات بناء المساكن الشعبية وإدخال الماء والكهرباء إلى القرى والعناية بالتعليم عن طريق إنشاء المدارس والعناية بالجامعات ومراكز البحث العلمي، والعناية بالصحة والمرافق العامة وحفر قنوات للري لزيادة الإنتاج الزراعي، والاهتمام بالتربة وصيانتها وإرشاد السكان الريفيين إلى أساليب الزراعة الحديثة.

وتتمتع العراق بثروات معدنية أهمها البترول الذي يتم استخراجه من مناطق شتى أهمها حقول كركوك واهتم المسئولون بتصدير البترول وتصنيعه بإقامة مصاف لتكريره وإنشاء مصانع للبتر وكيمويات وامتلاك أسطول عراقي لناقلات البترول.

ونظراً لوجود نهري دجلة والفرات وروافدهما قامت مشروعات للري وتشجيع الإنتاج الزراعي لاسيما القمح والمحاصيل الأخرى كالأرز والفواكه ويأتي التمر تالياً للبترول باعتباره سلعة تصديرية في العراق إلى جانب صناعات أخرى كالمنسوجات والأثاث والأحذية هذا إلى جانب الثروة الحيوانية.

(*) والتي أحدثت دماراً شاملاً في أنحاء العراق وتآكل الأخضر واليابس وأصبحت العراق محتلة ولم تنته الحرب.

ويتصل العراق بالعالم الخارجي عبر مطارات دولية وموانئ بحرية في الفاو وأم قصر وتوجد شبكة طرق بريد خارجية تربطه بالأقطار المجاورة إلى جانب السكك الحديدية والتي أهمها خط بغداد الموصل تل كتشوك ٥٢٩ كم^٢ وخط البصرة بغداد ٥٦٩ كم^٢ وتم التخطيط للمزيد من الخطوط الحديدية، لربط المدن بالداخل والخارج^(٤).

العراق قبل الفتح الإسلامي :

كان العراق من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً قديماً تعاقبت عليه الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرناً قبل الميلاد فالبابليون والآشوريون والكلدانيون والفرس واليونان، كل هؤلاء أنشأوا في العراق ممالك تختلف صيغتها وكانت مدنياتهم مفاراً يلقي أشعته على ما حوله من البلدان، وقديماً عرفه العرب، فنزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ثم كونوا فيه إمارة هي إمارة المناذرة في الحيرة^(٥)، وقد غلب الفرس على العراق قبل الفتح الإسلامي.

علاقة المسلمين بالفرس :

وقد بدأت علاقة المسلمين بالفرس منذ أن أرسل رسول الله ﷺ رسله وشعراءه إلى ملوك العالم آنذ ورؤساء العشائر في جزيرة العرب وذلك في العام السادس الهجري بعد صلح الحديبية يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن أرسل إليهم كسرى أبرويز الثاني ملك الفرس أرسل إليه الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي برسالة يدعوها فيها إلى الإسلام^(٦)، ولكنه أخذته العزة بالاثم وأبي أن يتبع هذا النبي العربي فمزق الرسالة وأرسل إلى بالذات عامله

(٤) البلدان الإسلامية: مرجع سابق (بتصرف).

(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام ط. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ط. صد ٦٥٤ ط. دار المعارف، مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٣، ٤.

على اليمن يأمره أن يذهب إلى مكة ويقبض على هذا الأعرابي الذي تجرأ على إرسال خطاب إليه.

ولما علم الرسول ﷺ بأن ملك الفرس مزق الخطاب دعا عليه قائلاً (مزق الله ملكه)^(٧)، فاستجاب الله دعوته وقام ابن كسرى شيرويه فقتل أباه وتمزق ملكه.

الفتح الإسلامي للعراق :

بعد أن استتب الأمن في الجزيرة العربية بعد أن قضى أبو بكر رضي الله عنه على فتنة الردة حيث عقد أحد عشر لواء لحرب المرتدين لاسيما الذين حرضهم الفرس من القبائل العربية من أمثال مسيلمة الكذاب وسجاح وأدى ذلك إلى الاشتباك الحربي بين المجاهدين المسلمين وبين فلول المرتدين على ساحل الخليج شمالاً بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني.

وكان المثنى من أولئك القواد الشجعان الذين أبلوا بلاءً حسناً في قتال المرتدين وكانت أخبار انتصاراته تتهادى إلى أبي بكر الصديق ﷺ فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه فقال قيس بن عاصم أما أنه رجل غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا قليل العدد ولا ذليل الغارة، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني^(٨)، وقد استأذن المثنى أبا بكر في غزو العراق، فجاء إليه قال له: يا خليفة رسول الله ﷺ استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل (فارس) فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً فصار حتى ترك خفان^(٩)، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا^(١٠)، وجمع المثنى حوله من بقى على

(٧) للبلاذري: مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٦ تحقيق د/ صلاح الدين المنجد.

(٨) خفان بفتح الخاء وتشديد الفاء موقع قرب الكوفة فوق القادسية يا قوت الحموي: معجم البلدان ٢٧٩/٤ ط. دار صادر بيروت ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان مرجع سابق ٢٩٥.

(١٠) القطيف إحدى مدن البحرين أنشد: يا قوت معجم البلدان ٢٧٨/٤.

الإسلام من أهل البحرين ثم اتخذ طريقه من البحرين إلى الشمال محاذياً الخليج العربي (الفارس) حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلنا النهرين (الفرات ودجلة).

فتحدث إليهم وتعاهد معهم، بعد أن علم مقدار الظلم الذي وقع عليهم من الفرس، كما علم أن هؤلاء العرب من تغلب داياذ والنمر، على استعداد للاستجابة لكل دعوة تخلصهم من دهاقين - حكام القرى - الفرس واستبدادهم.

وزحف المثنى في ثمانية آلاف مقاتل واصطدم بالفرس ودارت بعض المعارك، انتصر فيها المثنى وأخضع القطيف^(١١). إلا أنه وجد مقاومة من جيش العدو فتريث حتى يأتي المدد من الخليفة لاستجابة لرسائله.

خالد بن الوليد وعياض بن غنم رداً للمثنى :

واهتم أبو بكر ﷺ برسالة المثنى وأمر بتوجيه جيشين إلى الشمال جعل أمرة الأول إلى خالد بن الوليد ﷺ (ومعه المثنى بن حارثة) للزحف على الأبله^(١٢) - وكتب أبو بكر إلى المثنى إنني قد وليت خالد بن الوليد فكن معه - ثم مواصلة الزحف إلى الحيرة^(١٣)، فقال له (أن سر إلى العراق حتى تدخلها وإبدأ بفرج الهند وهي الأبله وتآلف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم^(١٤)).

(١١) بلد على شاطئ دجلة أقدم من البصرة: معجم البلدان ط. ٧٧.

(١٢) الحيرة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على فوضع يقال له الفجف معجم البلدان ج٢، ٢٢٨.

(١٣) الطبري في تاريخه ج٢/٣٤٣.

(١٤) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة وهي إلى الشام أقرب: معجم البلدان ج٢، ٤٨٧/٢.

وجعل أبو بكر رضي الله عنه أمرة الجيش الثاني إلى عياض بن غنم ووجهته دومة الجندل^(١٥)، ثم المسير إلى الحيرة فإذا سبق أحدهما الآخر كان أميراً على صاحبه^(١٦)، وذلك في المحرم سنة اثنتي عشرة^(١٧)، تقدم خالد بن الوليد رضي الله عنه فأتى العراق من جنوبها وتآلف الناس ودعاهم إلى الله عز وجل ولم يكره أحداً على المسير معين ولم يستعن بمن ارتد عن الإسلام وإن كان دعا إليه واصطحب كل امرئ حرية من المسلمين وذلك تنفيذاً لأمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه - فكثرت جيشه حتى بلغ عشرة آلاف مقاتل ولم يلقى هذا الجيش مقاومة في طريقة إلى العراق وقد أمد أبو بكر خالدًا بالفعقاع بن عمرو التميمي فقبل أنمه برجل واحد؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه (لا يهزم جيش فيهم مثل هذا)^(١٨) كما أمد عياضاً بعبد غوث الحميري.

وهكذا كانت حنكة الصديق رضي الله عنه وحكمته في تسيير ثلاثة جيوش لفتح العراق الذي استقام للمسلمين أسفله والواد وضاغاف الفرات على كلا جانبيين وبخاصة الضغاف الغربية وخضعت الحيرة والأنبار في عام ١٢هـ واتصل ما بين الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية.

وفي عام ١٣هـ توفي الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه والذي كان قد أوصى عمر رضي الله عنه بأن يندب الناس لمؤازرة المثني بن حارثة وإتمام فتح العراق فأرسل عمر رضي الله عنه النجدات إلى بابل بقيادة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي^(١٩)، وأوصاه بقوله (اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا يجتهد سراً حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث

(١٥) الطبري في تاريخه ج٢/٣٤٧.
(١٦) ابن كثير البداية والنهاية ج٢/٣٤٢ ط مطبعة السعادة. القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م، ط. دار الغد العربي القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
(١٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ط. دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
(١٨) الطبري في تاريخه ج٢/٤١٤، وابن الأثير: الكامل ج٢/٤١٦.
(١٩) الطبري في تاريخه ج٢/٤٤٤.

الذي يعرف الفرصة واللف^(٢٠)، والتقي أبو عبيدة مع المثني وتوالت المعارك بينهم وبين الفرس واستشهد أبو عبيدة في موقعة الحر وتولي قيادة الجيوش المثني بن حارثة حتى انتصر المسلمون في معركة البويب قرب الكوفة على جيوش الفرس بقيادة مهراون وقد اتبع المسلمون انتصاراتهم في البويب بغارات تحت قيادة المثني بن حارثة على أمكنة مختلفة للفرس.

وفي عام ١٤هـ (٦٣٥م) لقيت الجيوش الساسانية بقيادة قائدهم العام رستم هزيمة ساحقة في معركة القادسية^(٢١).

وكان قد تسلم قيادة المسلمين في العراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والذي أوصاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند تحركه فقال له: "يا سعد لا يغررك أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه"، ووصاه بالصبر، وانطلق سعد رضي الله عنه بمن معه حتى وصل إلى العراق فوجد القائد البطل المثني بن حارثة قد لبي نداء ربه، وقد خاض معركة القادسية التي تعد من المعارك الفاصلة في التاريخ وحقق انتصاراً مؤزراً للمسلمين، وقد تابع سعد الزحف بقواته حتى تم فتح المدائن^(٢٢) عاصمة الفرس ودخل القصر الأبيض وهو ينلو قوله تعالى "كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ"^(٢٣)، وصلي

(٢٠) القادسية قرية قرب الكوفة على حافة البادية: معجم البلدان ج١/٢٩١.

(٢١) الطبري في تاريخه ج٢/٤٨٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج٤/٢٩١.

(٢٢) المدائن هي سبع مدن بين دجلة والفرات جعلها العرب مقراً لحكمهم، معجم البلدان ج

٧٤/٥

(٢٣) آية ٢٥ - ٢٩ سورة الدخان.

صلاة الفتح ثمان ركعات لم يفصل بينهما^(٢٤)، وذلك في عام ١٤هـ - ٦٣٥م، وقد استخدمت العراق بعد ذلك كقاعدة انطلاق للجيش الإسلامية المتجهة شرقاً لفتح فارس وانتصر المسلمون على الفرس في معركة جلولاء في عام ١٦هـ - ٦٣٧م، وتمهد السبيل للانتصار الحاسم على الفرس في المعركة الفاصلة وهي معركة نهاوند بأرض إيران وتدعى فتح الفتوح، وحين انتشر الإسلام في العراق بعد تأمين فتحه أصبح جسداً طبيعياً لنشر الدعوة الإسلامية وامتداد فتوحها في بلاد المشرق حيث انساح المسلمون حتى وصلوا إلى ما وراء النهر وإلا بلاد الهند حتى وصل الإسلام إلى بلاد الصين.

(٢٤) الطبري في تاريخه ج-١٦/٤.

ازدهار الحضارة الإسلامية في العراق

عنى المسلمون في فتوح العراق بالدعوة إلى الله والتمكين لدينه في الأرض وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وكما أحيوا موات القلوب أحيوا موات الأرض وأقاموا مدناً زاهرة صارت منارات لحضارة الإسلام حيث مَصَّرَ سعد بن وقاص رضي الله عنه مدينة البصرة ومدينة الكوفة وبني أبو جعفر المنصور بعد ذلك بغداد فصارت هذه المدن الثلاثة معالم بارزة على حضارة الإسلام التي استمرت عدة قرون وكان لها أثر بارز في الحياة العلمية الإنسانية لاسيما أوروبا.

ونتناول في الصفحات التالية الحديث عن البصرة، ثم الكوفة، ثم بغداد، وعن الحياة العلمية وأثرها في الازدهار الحضاري.

أولاً: البصرة: وتمدنها:

البصرة مدينة كبرى بجنوب العراق قريبة من ملتقى مصب الرافدين على الخليج العربي والمسافة بينها وبين بغداد تقرب من ستمائة كم وقد سميت بهذا الاسم لأنها أقيمت في أرض حجارة رخوة فيها بياض. وقد تم إنشاء البصرة لتكون مقراً ومنطلقاً للجيش الإسلامي الفاتح بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والذي اختار هذا الموقع عقبه بن غزوان قائد إحدى الفرق حيث عسكر بجنده في موضع البصرة سنة ١٤ هـ وكانت أرضاً نفرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب وفي طريق البر إلى الريف ودونها مناقع ماء فيها فتصب.

وقد بدأ عقبه ببناء المسجد الجامع أولاً اقتداء بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وقد اختطه بيده ليكون منارة للعلم ومصدراً للإشعاع الحضاري في المنطقة، وأقام دار الإمارة بالقرب من المسجد ثم قامت خطط

القبائل حوله، وخططت الشوارع حيث جعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وعرض زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لربط خيلهم وقبور موتاهم.

وكانت المنازل من القصب الذي كانوا ينزعونه إذا خرجوا للجهاد ويضعونه حتى يرجعوا من جهادهم، فإذا رجعوا أعادوا بناءه، حتى بنيت بالأجر والجص، لاسيما مسجدها، وذلك حينما وليها زياد من قبل معاوية رضي الله عنه، وقد أسرع إليها العمران والتمدن لموقعها الممتاز، وقد اتخذها الأمويون مقراً لإمارة العراق فاتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها فرسخين، كما كانت أيام العباسيين ملتقى التجار، ومرسى لمئات السفن التجارية، فنكثرت ثروتها، وبنى أهلها القصور والحدائق وأنشأوا البرك والميادين ومن ذلك ندرك كيف قامت تلك المدينة على أسس ونظام هندسي دقيق فيما يخص المسجد والشوارع والمرافق وقد أخذت تشق طريقها نحو التمدن والحضارة حينما قام أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في سنة ١٧هـ بالتغلب على مشكلة مياه الشرب التي كانت تصلها مالحة، فبدأ مشروع حفر نهر الأبله الذي تم في عهد عبد الله بن عامر سنة ٢٥هـ وغيره من مجموعة الأنهار التي زودت المدينة بالماء اللازم ووصلتها تجارياً بالأقاليم المجاورة^(٢٥)، فدفع ذلك نموها وازدهارها، وهذا دليل على عناية المسلمين في فتوحاتهم بإحياء موات الأرض والعناية بالعمران البشري والأخذ بأسباب النهوض والرقى والمدنية.

ازدهار الحياة العلمية في البصرة^(٢٦)

منذ إنشاء مدينة البصرة ومسجدها الجامع غدت مصدر إشعاع حضاري حيث ازدهرت فيها الحياة العلمية لوجود كثير من صحابة رسول

(٢٥) البلاذري: مفتوح البلدان ص ٤٣.

(٢٦) انظر في البصرة وحضارتها، الطبري في تاريخه ج ٢/٤٤، أحمد أمين فجر الإسلام ص ١٨٠، ط. النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٧٨م، أبو زيد سلبي، الخلفاء الراشدين.

الله ﷺ ومن التابعين الذين أقاموا فيها أو رحلوا إليها، حتى صارت في القرن الأول مركزاً علمياً وأدبياً وانبعثت منه أنوار المعرفة على سائر أفاق العالم الإسلامي.

وقد حفلت البصرة بكثير من أماكن الإشعاع العلمي وأولها المسجد الجامع الذي كانت تعقد فيه حلق العلم كما قامت الكتاتيب بجوار المسجد بالإضافة إلى مجالس العلم في الدور.

وحفلت البصرة أيضاً بمئات من علماء الفقه والتفسير والحديث وقراء القرآن الكريم ومعلميه، وهم صفوة من صحابة رسول الله ﷺ من السابقين الأولين، نعد منهم ولا نعددهم ومن هؤلاء: أبو موسى الأشعري ﷺ الذي ولي قضاء البصرة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وكانت له حلقة علمية في مسجد البصرة، وكذلك عبد الله بن المققل المراني وعمران بن حصين، ومنهم حبر الأمة عبد الله بن العباس حين كان أميراً على البصرة للإمام علي، ومنهم أنس بن مالك الذي كان آخر من توفي بالبصرة من صحابة رسول الله ﷺ وذلك سنة ٩٣هـ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ومن مشاهير التابعين الذين ساهموا في نشر العلم بالبصرة معبد الجهيني وقد حدث عن عمران بن عباس وابن عمر، وعبد الكريم بن أبي المخارق الذي روى عن أنس ﷺ ومجاهداً وسعيد بن جبير، وعامر بن عبد الله العنبري، وأبو الشعناء وأبو العالية ومسلم بن يسار، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين وقتاده، وعكرمة مولي بن عباس، وأبو غلابة، ومالك بن دينار وغيرهم^(٢٧) وبجانب العلماء الأعلام من الرجال وجدت في البصرة

(٢٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى ط. دار التحرير القاهرة ١٩٦٨م، ابن كثير: البداية والنهاية، الذهبي: تذكرة الحفاظ دار الفكر تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والعلام مطبعة القدس - القاهرة ج٣، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتاب العرب ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

عالمات شهيرات من أبرزهن نسيبة بنت حارث الأنصارية من فضليات نساء الصحابة وقد غزت مع رسول الله ﷺ تأسو الجراح وتداوى المرضى ولما أقامت بالبصرة روى عنها الحديث أنس بن مالك ؓ كما أخذ عنها في الفقه، وأم عبد الله زوج أبي موسى الأشعري وزينب بنت نبيط بن جابر الأنصارية، ومعاذة بنت عبد الله العدوية من ربات الفصاحة والبلاغة والتفقه في الدين روت الحديث وروى عنها ومن فضليات التابعيات خيرة أم الحسن البصري وحفصة بنت سيرين وغيرهن ممن أثرين الحياة العلمية^(٢٨).

الكوفة : تمدنها والحياة العلمية :

الكوفة هي الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة تخالطها حصباء^(٢٩)، وقد تم بناؤها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والسبب في إقامتها هو وجود مكان يقيم فيه الجند بأسرهم، ويستريحون من عناء الفتح، ويوجهون منه حملاتهم إلى المناطق المجاورة لأنه يوافق طبيعتهم ويحفظ على الجيش حيويته وقوته، وألا يكون الموقع فاصلاً طبيعياً بين هذا الجيش وبين مركز القيادة في المدينة المنورة لتأمين طريق المواصلات والإمدادات، وقد تحققت مزايا بنائها في هذا الموقع لعدة عوامل العامل الجغرافي والذي تمثل في صفاء جو المكان وجودة مناخه ووقوعه على حافة صحراء شبه الجزيرة العربية ولا يفصل بينه وبين المدينة المنورة ماء أو جسر ليسهل اتصال الخليفة بالقاتحين وحتى يتمكنوا من حماية ظهورهم بالصحراء عند لقاء العدو والعامل العسكري الذي جعل الكوفة نقطة ارتكاز، وقاعدة حربية يستريح فيها الجند بعد توغلاتهم في الفتوحات لتحمي ثغور البلاد، وتكون مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤمن وكما قال عمر ؓ (بحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار).

(٢٨) كحالة: أعلام النساء مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢٩) البلاذري: فتوح ٢٢٨.

ملاحح تخطيط الكوفة وتمدينها :

من أهم ملاحح المدن الإسلامية جامعها ولهذا كان أول شيء خطط بالكوفة - المسجد الجامع - جيث قام رجل - في وسطه - رام شديد النزاع قوى فرمى عن يمينه وبين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهم.

وكان المسجد الجامع مربع الشكل، متسع الرقعة، وكانت ظلته مائتي نراع، وأقيمت على أعمدة من الرخام جلبت من بلاد الفرس وقد حفروا حول الصحن خندقاً حتى لا يقتحمه أحد بالبنيان، وتم تخطيط مقر الإمارة بحيال محراب المسجد، وكان بناء الكوفة (المدينة) من الأجر الذي جلب من الحيرة، وظل هذا القصر منزلاً خاصاً للأمرأ الذين تولوا إمارة الكوفة بعد سعد بن وقاص رضي الله عنه كما بنى بيت المال بجوار دار الإمارة وبجوار المسجد حيث كان بينها مائتا نراع، كما خطت المناهج (الشوارع) من حول المسجد وجعلت الأساسية منها - وفقاً لأمر الخليفة - أربعين نراعاً وما يليها ثلاثين نراعاً، وما بين ذلك عشرين، وجعلت الأزقة سبعة أذرع، وتفرع من المسجد خمسة عشر منهجاً (شارعاً) من شماليه خمسة ومن قبلته أربعة، ومن شرقيه ثلاثة، ومن غربيه ثلاثة أيضاً، ثم وزعت القبائل من حول المسجد على هذه المناهج، وأمر سعد أحد عماله الحدقين أن يتولى أمر توزيع الخطط على القبائل، وكانت كل قبيلة تقسم الخطة المخصصة لها، كما كان منها مقبرتها المعروفة بها وقد أنشئ سوق الكوفة في الوسط وكان عبارة عن ساحة فضاء، لا توجد بها مبان أو سقف، اللهم إلا تلك الظلل التي عملت لتظلل البائعين في أماكنهم التي اختاروها ونشطت التجارة وازدهرت^(٣٠).

(٣٠) الطبري في تاريخه، ابن كثير في البداية والنهاية.

وهكذا نشأت الكوفة ومُصرت، وبدأت تخطو خطوات سريعة نحو التحضر والرقى حتى أضحت منارة من منارات العلم، ويشار إليها دائماً عند ذكر الإمام علي عليه السلام حيث اتخذها مقراً له في خلافته، وكان لها أثر بارز بعد ذلك في انطلاق الفتوحات الإسلامية والحياة السياسية.

مجتمع الكوفة :

وقد سكن الكوفة منذ تأسيسها رأس العرب ووجوه الناس وصفوة أصحاب - رسول الله صلى الله عليه وسلم - حيث نزلها ثمانون وثلاثمائة رجل من أصحاب بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وكانوا للناس قدوة حسنة وأسوة طيبة ولا غرو فيم الذين أمتوا وعزروا ونصروا واتبعوا النور الذي أنزل مع رسول الله ﷺ ويجانب العرب آخرون من أبناء الديانات الأخرى الذين جاءوا إليها من الحيرة والقرى المجاورة لها بعد زوال مجد الحيرة، كما هاجر إلى الكوفة بعض نصارى العرب من تغلب ونجران، وقد عامل المسلمون غيرهم معاملة حسنة تجلت فيها مبادئ الإسلام السمحة حيث حفظوا لهم دماءهم وأموالهم وحرّياتهم وفاء للعهد الذي كتب لهم عند الفتح فكانت لهم الأديرة بالكوفة يمارسون فيها شعائرهم، وكان من هؤلاء الكلدانيون، والسريان والآراميون وأطلق عليهم اسم الأنباط، وقد زاولوا مهناً أنف العرب من مزاولتها لانشغالهم بالفتوحات. وسكن الكوفة أيضاً بعض من الفرس حيث نزلها أربعة آلاف منهم ولكن الله هداهم إلى الإسلام بعد موقعة القادسية وانضموا إلى صفوف المسلمين مجاهدين في سبيل الله.

وهكذا جمعت الكوفة بين كل هؤلاء ومزجت بين صفاتهم المختلفة وأهوائهم المتعددة، وكان مجتمعها منذ تخطيطها أربعين ألفاً ثم ازداد سكانها بعد ذلك والذين عاشوا في رغد من العيش كما كان لازدهارها التجاري أثر كبير في رخاء العراق وزيادة موارد ثروته، وكان لتمدن الكوفة أثر بارز في جعلها معلماً من معالم الحياة العلمية.

الكوفة وازدهارها الحضاري :

منذ تأسيس الكوفة غدت مركزاً علمياً من أهم المراكز، حيث أقام بيا أو هاجر إليها كثير من العلماء في كل علم وفن، من تفسير وحديث وعلوم لغة كما ظهرت المساجلات النحوية في مدرسة الكوفيين والبصريين. وتمثلت مظاهر تلك الحركة العلمية في الكتابات التي غنيت بقراءة القرآن الكريم وإقرائه وتعليم القراءة والكتابة، كما نمت مسجدها الجامع بحلقات العلم وتعددت مجالس العلماء في دورهم. وكان من أشهر العلماء الذين أثروا الحياة العلمية في الكوفة صفوة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن التابعين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، سعد بن أبي وقاص، عبد الله بن مسعود، حذيفة بن اليمان، علي بن أبي طالب، شريح القاضي، أبو موسى الأشعري، عبد الرحمن النخعي رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد كان لكل منهم مدرسته وأصحابه ومن هؤلاء علقمة الأسود، مسروق، عبيدة، أبو ميسرة، عمرو بن شرحبيل، الحارث بن قيس الحكم بن عيينه وكلهم أصحاب مجلس عبد الله بن مسعود ونشطت الحركة العلمية في الكوفة فرحل إليها كثير من العلماء ليتلقوا العلم عن علمائها، وينشروه في الآفاق ومن أشهر هؤلاء عالم المدينة وقيدها أبو سلمة بن عبد الرحمن، والمحدث الثقة أبو صالح السمان أبرز علماء المدينة أيضاً، مجاهد بن جبير عالم مكة وتلميذ ابن عباس مكحول الدمشقي، نصر بن عاصم، محمد بن سيرين، ذربن حبيش، سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم وغيرهم من أولئك الاعلام الذين عرفوا أهل الفضل فسبقوا إليهم وأهل العلم فاستنوا منهم نميره وسقوا غيرهم فأحيوا بعلمهم القلوب وأناروا العقول.

وبجانب هؤلاء الأعلام من الرجال حفلت الكوفة بكثير من الصحابييات الفضليات، والتابعيات الكريمات اللاتي أثرن في الحياة العلمية ومنهن زينب بنت عبد الله التقية امرأة عبد الله بن مسعود وكانت رواية للحديث ، روت عن زوجها وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعاً، وروى عنها ابنها أبر عبیده، ومسعود ، وابن أخيها وغيرهم .

ومن عالمات الكوفة أيضاً روايات الحديث النبوي الشريف جسرة بنت العامرية الكوفية تابعة ثقة روت عن أبي ذر رضى الله عنه وعلى وعائشة وأم سلمة رضى الله عنهم وعنهن كما روى عنها ، وكذلك كانت زينب امرأة قيس بن حازم من روايات الحديث النبوي الشريف روت عن عائشة، وصفية رضى الله عنهما وأرضاهما وروى عنها زوجها .
وهكذا كانت البصرة والكوفة منارتان من منارات الحضارة الإسلامية، ومن نور علمهما استضاءت بقية الأمصار وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده (٣١).

بغداد عاصمة الخلافة العباسية :

معلوم تاريخياً أن الخلافة العباسية تم إعلانها في مدينة الكوفة في سنة ١٣٢ هـ . ولكن العباسيين رأوا نقل عاصمتهم إلى الحيرة شمال الكوفة ، حيث يوجد أنصارهم إلا أنهم لم يتخذوها عاصمة دائمة لهم إنما أخذوا يفكرون في مكان أكثر صلاحية وأحسن مقاماً، وفي الحيرة استقر رأيهم على أن يتخذوا الأنبار عاصمة لخلافتهم وهي تقع على بعد عشرة فراسخ من المكان الذي انشقت فيه بغداد، وقد أطلق السفاح على تلك المدينة اسم الهاشمية وانتقل إليها ونقل لها دواوينه وظل بها إلى أن مات .

(٣١) وانظر في الكوفة وازدهارها الحضاري، الطبري في تاريخه ٣/٨١؛ وما بعدها، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ابن الأثير: الكامل ٣/٣٢ وفي عالمات الكوفة: الذهبي سير أعلام النبلاء ج٤، ٥، ٦، ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٢.

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فكر في اتخاذ عاصمة أخرى غير الأنبار الهاشمية وذلك لأن بعض الناس المخالفين لبني العباس قد صاروا في تلك المدينة ، وهددوا أبا جعفر المنصور ، وحتى يأمن الاضطرابات والقلاقل ، فكر رجاله في مكان آخر تتوافر فيه مميزات تليق بعاصمة الخلافة وأبهة الحكم ورفض العيش فكان اختيار بغداد وكان تشييدها ، وتوافرت في هذا المكان المزايا التي كان ينشدها أبو جعفر المنصور فيو مكان طيب الهواء، حسن الجو ، محصن طبيعياً ضد غارات المعتدين ويسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع الخلافة الإسلامية وقد تحقق ذلك في مكان بغداد كله أو جلّه ، فهي على نهر دجلة وعلى ضفتيها تأتيها الميرة والطرائف من الهند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضاً على الفرات والقريبة منهم ، وهذا المكان بين أنهار لا يستطيع العدو أن يصل إليه إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسور وأزيلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، كما أن المكان وسط بين بلاد العرب والعجم .

يقول الخطيب البغدادي (حينما تحقق أبو جعفر المنصور من توافر المزايا بالمكان الذي تقرر أن تقام ، عاصمة خلافته عزم على بنائها ، فأحضر المهندسين وأهل المعرفة والبناء والعلم بالزرع والمساحة ، وقسمة الأرضيين فمثل لهم صناعتها التي في نفسه وطلب منهم أن يتبعوا ذلك في بناء المدينة .

وتم تخطيط بغداد لتكون مدينة مدوره حيث يقع في وسط الدائرة قصر الخليفة المسمى قصر الذهب وجامع المنصور ، ولم يكن حول هذين بناء إلا دار بناها للحرس ، وأخرى بناها للشرطة وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأحرار ورجال الدولة ودواوين الحكومة ثم دور الأهالي تتخللها الأسواق .

وكان هدف المنصور من هذا التخطيط ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين في درجته وأن يكون الخليفة في مكان حصين ، يحيط به حرسه وأصفياءه فيأمن بذلك السوء .

وكانت مناهج بغداد أربعة رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيرة تصل بينها ، وأقيم للمدينة في أول أمرها سوران قطر دائرة السور الداخلي مائة ذراع وعرضه من أسفل عشرون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرض ما بين السورين ستون ذراعاً ومائة ذراع وفي كل سور أربعة أبواب تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة سمي بأسمها وهي باب الكوفة وباب البصرة وباب خرخسان وباب الشام ، وعلى كل باب قبه ذاهبه في السماء ، وعلى رأس كل قبه تمثال ، وبين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً ، ثم أقام المنصور سوراً ثالثاً داخلياً على النسق السالف زياده في الإحكام وقد شارك في بناء بغداد عدد عظيم من الفعلة والمهندسين والفضلاء ومن أبرزهم الحجاج ابن أرتاه الذي أسهم في تخطيط المدينة ، والإمام أبو الحنيفة النعمان وكان يقوم بعد الأجر واللبس ، وابتكر للعد طريقة جديدة وهي أن يعدو بالقصب اختصاراً . وقد تم بناء بغداد سنة ٤٦ هـ (٣٢) وقد بدت معالم مدينة تتمثل في تعبيد الطرق وتجميلها والعمل على نظافتها واستتباب الأمن بها والنظام فيها ، ورغبة في وصلها بالفرات قام بحفر قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات وتشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهريه بآسيا الصغرى وسوريا وصارت مهوى الأفتدة ومملأً للزائرين ولم يمضى على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت مدينة عامرة زاخرة بالمدينين والعلم والفضل وتطلعت إليها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها أذان العالم ، واحتلت بسرعة مكان

الصدارة في السياسة وفي النشاط الإجتماعي والعلمي، واحتفظت طويلاً بمكانتها العالية ومعالمها الحضارية على الرغم مما أصابها من هزات وما حل بها من خطورة . وصدق الله العظيم (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

بغداد والحياة العلمية في حياة المنصور : (٣٢)

أصبحت بغداد منذ أسسها المنصور حاضرة الخلافة العباسية ومنازة حضارتها ، حيث غدت مدينة المدائن ومركز التجارة وكعبة العلوم والأدب ومعين الثروة والرخاء ، كما أصبحت مبانيها الضخمة ومنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن يقول الجاحظ : قد رأيت المدن العظام والمذكورة بالإتقان والأحكام بالشامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلاً من بغداد ويقول ياقوت في معجم البلدان (بغداد جنة الأرض، مدينة السلام ، قبة الإسلام ، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين الطرق، دار الخلافة، مجمع المحاسن والطيبات، ومجمع الطرائف واللطائف، وبها أبواب الغايات في كل فن، آحاد الدهر في كل نوع، هوائها أغزى من كل هواء ، ومائها أعزب من كل ماء، ونسيمها أرقى من كل النسيم.

وقد اهتم أبو منصور اهتماماً عظيماً بالحياة العلمية في بغداد حيث وقف كل وقته على نشر العلوم ، وتقريب العلماء وتشجيعهم ، وكان أول من عني بحركة الترجمة حيث تشجع العلماء على ترجمة أمهات الكتب من السريالية واليونانية والفهلديه إلى اللغة العربية .

ومن أوائل المترجمين من اليونانيين أبو يحيى البطريرق الذي ترجم للمنصور أهم تأليف جالينيوس وأقراط وبطليموس السندري ، ويوحنا (يحيى)

(٣٢) وانظر في بناء بغداد وتخطيطها وحضارتها ياقوت: معجم البلدان، البغدادي: تاريخ بغداد، الطبري في تاريخه د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج٢ من ص٢٢٦ وما بعدها.

بالماسون، وهى سرياني ترجم كثيراً من كتب الطب ، وأما شيخ هؤلاء المترجمين والذين أقاموا بعد ذلك في دار الحكمة أيام هارون الرشيد والمأمون فكان حنين ابن اسحق وبفضل هذه الترجمة ظل جزء كبير من تراث اليونان حياً لا وجود له إلا من خلال الترجمة العربية التي نقلت إلى شرق الدنيا وغربها .

وهكذا تمكن طلاب المعرفة من الغرب في مدى بضع سنوات أن يهدموا ما اتجه اليونان في سنوات طويلة وعنها أخذها الأوروبيون في القرن الثاني عشر الميلادي ونقلوا هذه المعارف عن العبرية إلى اللاتينية وقد أنشأ المنصور ببغداد مدارس للطب والشريعة ، وصرف عليها أموالاً طائلة، وشجع العلماء على تدوين العلم وكتابه من تفسير وحديث وفقه ونحو ومعان وبيان وبيدع وتاريخ فانبتت في عهده ثمار العلم وأخذت أنوار العلوم والفنون تستطع في سماء عاصمة الخلافة الإسلامية وتنتشر دورها في مختلف أنحاء الدولة.

بغداد والعصر الذهبي :

وكان عهد هارون الرشيد العهد الذهبي للخلافة العباسية في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، حتى ذهت بغداد وازدهرت وصارت كعبة العلم وروضة العلماء وذلك لما امتاز به ذلك الخليفة من الإيمان العميق والعزيمة الصادقة والخلق الفاضل الكريم والحرص على مصالح المسلمين والعمل على تمكين دين الله في الأرض في دولة اتسعت أرجاؤها وامتدت بين الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً حيث عم العدل وكثر الخير وفاض العلم بخير صانئاً وبلغ من ثقة الخليفة بالله ، انه كان إذا رأى سحاباً تحمل المزن قال : امطري حيث شئت فسوف يأتي خراجك.

كما امتاز هارون الرشيد بعقل رشيد وثقافة واسعة وصلح وتقوى، فكان شاعراً، راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتميز، مهيباً عند الخاصة والعامة، وكان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم وكان يحج عاماً ويغزو عاماً مدة خلافته إلا سنين قليلة، وكان يصلى كل يوم مائة ركعة، وحج ماشياً من مكة إلى عرفات، وكان إذا حج حج معه مائة ألف من الفقهاء وأبنائهم، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، يقرب العلماء ويجزل لهم العطاء ويحرص على مجالسة أهل الفقه والأدب ويكره المرء في الدين كما كان شجاعاً مقداماً.

ولذا بلغت بغداد في عهده أوج ازدهارها الحضاري حيث ارتفعت فيها القصور الشامخة، وزادت موارد ثرواتها، وصارت واسطة العقد في التجارة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فأصبحت كعبة العلماء والأدباء، فنشأ بها وترعرع فيها وشد رحاله إليها كثير من العلماء الأعلام في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والإنسانية والفلسفية والتجريبية كالفاك والرياضيات والطب، وسطعت في سمائها شمس أضاءت المعمورة بنور علومها ومعارفها وعبرت البحار والمحيطات مؤثرة تأثيراً كبيراً في الحضارة الإنسانية.

ومن أبرز هؤلاء العلماء الأئمة الأربعة. الإمام أبو حنيفة النعمان المتوفى ١٥٠هـ صاحب المذهب الحنفي، الإمام مالك بن أنس إمام المدينة المنورة صاحب المذهب المالكي المتوفى ١٧٦هـ وصاحب كتاب الموطأ، والإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب الشافعي الذي ولد سنة ١٥٠هـ وتعلم على يد الإمام مالك ٢٠٤هـ والإمام أحمد بن حنبل الذي ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ وتوفى بها، كما برز في التفسير مقاتل بن سليمان الأزدي وابن جرير الطبري، وفي علم الحديث الإمامان البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وكلهم تتلمذ على علماء بغداد ولا تزال

كتب هؤلاء العلماء الأعلام وآراؤهم نبراساً لطلاب العلم وزاداً يتزودون به في كل زمان وفي كل مكان من المعمورة.

كما نبغ في النحو أبو الأسود الدؤلي وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي والفراء، ومن الشعراء أبو تمام وابن الرومي والبحتري والمنتبي، ومن الأدباء عبد الحميد الكاتب والجاحظ، ومن المؤرخين ابن اسحق والبلاذري، وابن سعد والخطيب البغدادي ومن الجغرافيين والرحالة ابن خرداذبه، صاحب كتاب المسالك والممالك وغيره من الرحالة.

وإذا كانت العراق في ظلال الخلافة العباسية الزاهرة قد حفلت بعلماء الشريعة واللغة والعلوم الإنسانية فقد حفلت أيضاً بكثير من العلماء في العلوم التجريبية من أمثال جابر بن حيان في الكيمياء، عمران الوضاح في الحساب، والحجاج بن أرطاه في الهندسة الذي خطط المسجد الجامع في بغداد في عهد المنصور ومن علماء الفلك ابن يختيشوع أيضاً والذي نبغ في علم النفس ومهد في تشخيص الأمراض العصبية وعلاجها، وقد عينه هارون الرشيد رئيساً للأطباء في حاشيته وقد اهتم العباسيون في العصر الزاهر بنشر العلوم الطبية وتقدمها وشجعوا الأطباء وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية لا سما في موسم الحج، وقد استضاءت حواضر العالم الإسلامي بعد ذلك بحضارة العراق، فازدهرت بخارى وسمرقند وطشقند وقرطبة وغرناطة وأشبيلية ثم القاهرة كما أثرت الحضارة الإسلامية في أوروبا واقتبست منها كثيراً من المعارف وهكذا سطع نور الحضارة من منارة بغداد على الآفاق فكتب تاريخاً مجيداً وعزاً تليداً وسجل على صفحاته حضارة زاهية زاهرة، يحكيها الخلف عن السلف وإن من لم يعرف ماضيه لا يعرف حاضره ولا يستشرف مستقبله.

وإذا فانك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسّي.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.